التراث المائي بواحات وادي نون
مقاربة تاريخية وإثنوغرافية

د. بنطالب مولود
دكتوراه في التاريخ والتراث
جامعة محمد الأول
وجدة - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه ضمن تكوين " التراث الثقافي والتنمية"، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول- وجدة (المغرب)، نوقشت بتاريخ ١١ فبراير ٢٠٢٣.

الباحث: بنطالب مولود
إشراف: الأستاذ الدكتور النشيوي العربي
التخصص: التراث الثقافي والتنمية
التاريخ: فبراير ٢٠٢٣
لجنة المناقشة: الدكتور بنقدور بن يونس
الدكتور أوري لحسن
الدكتور مقبوب إدريس
الدكتور الكتاني سيدي محمد

أنجزت هذه الأطروحة ضمن تكوين الدكتوراه" التراث الثقافي والتنمية"، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، التابعة لجامعة محمد الأول- وجدة، والتي حضرها الطالب الباحث بنطالب مولود، تحت الإشراف الدكتور العربي النشيوي (جامعة محمد الأول- وجدة). وناقشها كل من السادة الأساتذة الأفاضل، الدكتور بنقدور بن يونس (جامعة محمد الأول بوجدة- رئيسًا) والدكتور أوري لحسن (جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس بفاس- مقرراً) والدكتور مقبوب إدريس (جامعة محمد الأول بوجدة- مقررًا) والدكتور الكتاني سيدي محمد (جامعة سيدي محمد بن عبد الله سايس بفاس- مقررًا)، وذلك يوم ١١ فبراير ٢٠٢٣م، في الساعة العاشرة صباحا بقاعة نداء السلام بمقر الكلية. إستغرقت المناقشة مدة أربع ساعات كاملة، وبعد تداول لجنة المناقشة برئاسة الدكتور (بنقدور بن يونس)، قررت منح الطالب الباحث (بنطالب مولود) شهادة الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية، تخصص: التاريخ والتراث، بميزة مشرف جدا، وبحضور نائب العميد ومنسق قطب الدكتوراه (الدكتور عبد الجبار المديوني). من حسنات هذه الأطروحة جمعُها بين تخصصيين (التاريخ- التراث والفولكلور والثقافة الشعبية). ويحتوي هذا البحث على أربعة ملاحق (المخطوط- الوثائق المحلية- نوبات الماء- الأضرحة). وقارئ هذه الأطروحة، يرى أن العمل المنجز كله بحث ميداني بالكامل، يضم في متنه صور وخرائط ومئة وثيقة عرفية لملكية الماء والأرض، وتخريج مضمونها إلى الخط الواضح والمقروء، مما يضعنا أمام أطروحة أكثر مصداقية وواقعية في تحضيرها.

كلمات مفتاحية:
التراث المائي؛ واحات وادي نون؛ الجنوب الغربي المغربي؛ مقاربة تاريخية وإثنوغرافية.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.263125

مُقدِّمَةُ

تتناول أطروحة التراث المائي بواحات وادي نون، أهم الجوانب التاريخية والإثنوغرافية لقضايا الماء. وقد تحكم في عملية اختيار الموضوع، عوامل ذاتية تمثلت في واقع المجال وثقافته الشعبية التي أثرت وأنا أتجول في واحات وادي نون، حيث تتقاطع وتتداخل أمور مختلفة تاريخية أو طبيعية أو بشرية أو ثقافية شعبية، ومن ذلك مثلا: المجال الواحي الوادنوني بتراثه المائي وعاداته الاجتماعية، كما تتجاوز الآثار التاريخية القديمة كأطلال أَكْوِيدِرْ، وتَكَمِي أُوكْلِيدْ (دار السلطان)، ونُولْ لَمْطَة وتَكَاوسْت، وقصبة أُوحْدَادُوا، وقصبة إِرزْ، وقصبة تَالْعِينتْ، و المخزن الجماعي إِدْعِيسَى، و أَكْلَوِي وقلعة فاصك المبنية بالتراب

المدكوك. ويتداخل في مجال وادي نون أيضا نمطي عيش مختلفان، وهما الاستقرار (أهل القَصْ) والترحال (أهل العْرَبْ)، فترى المستقرين متشبتين بمجالهم الحيوي، والرحل الذين ينتجعون بقطعانهم نجعات كبيرة أو صغيرة، ولا يساورهم شك أنهم سيعودون إلى الواحة التي تعني لهم أكثر من مجرد نخيل ومكان للرعي.

وتتعايش في المجال ثقافتان (الأمازيغية والحسانية)، فتسمع أحد السكان يتحدث لهجة تَشَلْحيتْ بطلاقة، وآخر يتكلم الحسانية بفصاحة، وثالث يتكلم بهما معا. فكنت وأنا أتجول بين حقول واحات وادي نون، وألتقي بسكانها، يدفعني الواجب والفضول لكتابة تاريخ تراثها المائي، وتتبع صيرورة تشكل تقنياتها، وتفكيك تداخل طقوسها وعاداتها الاجتماعية، حتى تتضح أهمية الماء كعنصر أساسي للحياة وندرته في الواحات، مما يتطلب تدبير استغلاله بواسطة تقنيات مختلفة.

دوافع اختيار الموضوع

لم تَطغ العوامل الذاتية على موضوع الأطروحة، بل كانت العوامل الموضوعية أقوى، فانطلقت من طرح مجموعة من الأسئلة فرضتها إشكالية البحث، كان أولها طبيعة العلاقة بين الماء ومجتمع واحات وادي نون؟

قد يكون الجواب عن هذا السؤال بديهيا وهو محاولة فهم هذه العلاقة، من خلال وضعها في سياقها التاريخي، والاجتماعي، والإثنوغرافي، والاقتصادي على وجه التحديد. لكون أغلب الواحات تعتمد في اقتصادها بالدرجة الأولى على الماء بمختلف أشكاله، وبالتالي فإن طرق استعماله، وتوزيعه تخضع لقوانين اجتماعية صارمة، تتحدد وفق البُنى القبلية السائدة بالمجال. كما قد يوحي السؤال أعلاه أن بحث الأطروحة سيتجه في إطار العلاقة بين الماء ومجتمع الواحة، وهي الثنائية التي ركزنا عليها من خلال دراسة مختلف الأعراف القبلية، التي تعتبر الإطار القانوني الذي على ضوئه يتم استعمال واستغلال الماء في واحات وادي نون، كما أن موضوع الماء بشكل عام يثير العديد من القضايا حول مصادر المياه وطرق استغلالها ومجالات استعمالها، وبتعدد أنواع مصادر تلك المياه تتعدد طرق استعماله وتوزيعه في واحات وادي نون.

الصعوبات

اعترضت الباحث مجموعة من المشاكل والصعوبات أثناء إنجاز هذا البحث منها:

مشكلة جمع الوثائق المحلية التي بحوزة ساكنة واحات وادي نون، وصعوبات تخريج الوثائق المحلية إلى الخط الواضح والمقروء، بالإضافة إلى امتناع بعض الفلاحين عن الإجابة أثناء المقابلة الشفوية، خاصةً فيما يتعلق بتقنيات توزيع نوبات الماء بين المالكين لها.

١-الإشكالية وفرضيات الأطروحة

سعى مولود بنطالب من خلال أطروحته إلى تناول مشكلة الماء وعلاقته بمجتمع الواحة من جهة، وإلى قضايا أخرى تتعلق في جوهرها بالإطار الجغرافي للمجال المدروس، وأهمية مخزونه من الماء عبر التاريخ، باعتبار الماء هو مدار الحياة التي ترتكز عليه معظم الأنشطة الاقتصادية في الواحات. كما يشد النسيج الاجتماعي للقبائل، بالرغم من الصراعات التي كانت تنشب بين الفينة والأخرى حول الأحقية والأهلية في تملك استعمال واستغلال الماء، وكذا الصراع بين سكان السافلة وسكان الأعالي فيما يتعلق بحصص كل طرف في استغلال الماء.

ويساهم هذا الموضوع في إثارة جملة من القضايا الأخرى، منها رصد أهم المكونات القبلية بهذه الواحات؛ في إطار علاقتها بموضوع الماء، وبما أن المجال يعتبر موطنا لقبائل مستقرة وأخرى مترحلة، وقبائل مالكة لحصص الماء (النَوْبَة) وقبائل لا تملكها، فإن من شأن هذا التباين بين المالكين والمستغلين أن يثير العديد من القضايا المتعلقة بكيفية وكمية الاستغلال. إن مقاربة الماء وعلاقته بمجتمع الواحات، لا يمكن أن تتم بمعزل عن ملكية الأرض، سواء كانت هذه الملكية فردية أو جماعية أو سلالية، على اعتبار أن هناك من مالكي الأراضي الفلاحية المسقية بالواحات من لا يملك حصص الماء، مما سيجعلنا نثير نقطة مهمة تتعلق بالأساس بالتكافل الاجتماعي في إطار المنفعة المتبادلة في تدبير الماء بين الأقطاب الثلاثة: ملكية الأرض وملكية الماء وملكية الأرض والماء معا.

كما سنتناول في هذه الأطروحة الخريطة المائية لهذه الواحات، ومنشآت الري فيها، وكذا الآليات المبتكرة من طرف مجتمع الواحة المتعلق بنظام السقي، لمقارنتها بما كان سائدا من الوسائل التقليدية التي اعتمد عليها سكان الواحة سواء في عملية التوزيع أو الاستغلال، والتي كانت من إرث النظم البدائية العتيقة. ولتوضيح دور الماء بشكل أكثر ارتأينا كذلك إثارة موضوع طبيعة العلاقة بين مجتمع الواحة والطقوس المائية، فساعدنا ربط الموضوع بهذا المحور في إطار الدراسة الشمولية التوقف عند

الثقافة الشعبية، واستثمارها بما فيها من عادات اجتماعية وطقوس مائية كانت تمارس في واحات وادي نون. فإن المرغوب في مثل هذه الدراسات مقاربة موضوع الماء من زاوية تاريخية وإثنوغرافية شمولية، نسعى من ورائها وضع الموضوع في سياقه التاريخي الذي يجمع بين مختلف مكونات وتمفصلات الاجتماعية والقبلية لمجتمع الواحات.

من هذا المنطلق يبدو أن معالجة هذه الإشكالية يجعلنا نطرح العديد من التساؤلات على الشكل الآتي:

- إلى أي حد استوعب المجتمع الوادنوني أعراف وقوانين الماء؟
- كيف يتم توزيع الماء داخل واحات وادي نون؟
- كيف يمكن تحديد المستفيدين من الدورة المائية؟
- هل تملك الأرض يوازيه امتلاك الماء؟
- هل يحق للقبائل الرحيلة التي ترتاد هذه الواحات الانتفاع بالماء أو تملكه عن طريق الشراء أو الرهن؟
- ما دلالات الطقوس المائية التي تمارس داخل واحات وادي نون؟

٢-منهج الأطروحة

يستعصي على الباحث الذي يريد الخوض في التراث المائي بواحات وادي نون وعلاقته بالمجتمع، اختيار مقاربة منهجية وحيدة قد تمكنه من ملامسة مختلف القضايا والإشكالات التي يثيرها موضوع الماء وعلاقته بمجتمع الواحات، واستناداً إلى مختلف المعلومات التي توافرت لدينا حول الموضوع، فإن المنهج التاريخي التحليلي التركيبي هو الذي يمكن من خلاله تناول هذا الموضوع، ولكن بعد تدقيق النظر يتضح أن مثل هذه المواضيع تفرض على الباحث تجاوز هذه النظرة إلى هذا الموضوع من هذا الجانب، وبالتالي فإن مقاربات منهجية أخرى أكثر شمولية تُفرض على الباحث أثناء جمع وتحقيق المعلومات.

إن موضوع التراث المائي بواحات وادي نون، يمكن مقاربته من زوايا نظر مختلفة، ولكنها متكاملة في آن واحد، فعملية الوصف التي اعتمد عليها العديد من الباحثين أصبحت متجاوزة إذا لم يتم تدعيمها بمناهج أخرى أكثر دقة وشمولية، لذلك فموضوع التراث المائي بواحات وادي نون يتطلب من الباحث تبني منهج تاريخي. كما أن عملية تركيب المعلومات، سواء وفق ترتيب كرونولوجي أو موضوعاتي، يعتبر مطلبا أساسيا ومنهجا لا يمكن تجاوزه في هذا الإطار، غير أن هذين المنهجين لا يعدوان أن يكونا اجترارا للدراسات السابقة حول الموضوع، ولتجاوز هذا النقص لابد من وضع كل المعلومات حول التراث المائي في سياقها التاريخي والاجتماعي على وجه التحديد، وذلك في مسعى للإجابة عن مختلف الإشكالات التي يطرحها ويثيرها.

فلا مناص إذن من مقاربة الموضوع من زوايا النظر التحليلية من أجل إعطاء الحدث أو المعلومات بعدها التاريخي والاجتماعي، وتماشيا مع هذا التوجه الذي يفرضه موضوع الأطروحة فإن عملية التركيب والتحليل قصد الاستنتاج تعتبر في نظرنا مقدمة لفهم موضوع التراث المائي وعلاقته بمجتمع الواحات في مجال وادي نون. كما اعتمدنا أيضا على المنهج الإثنوغرافي لما يتح هذا المنهج من آليات كفيلة بتسليط المجهر على الثقافة الشعبية (الطقوس المائية والعادات الاجتماعية) التي تمارس بواحات وادي نون.

٣-المادة المصدرية المعتمدة

لقد وظفت في الأطروحة مادة مصدرية متنوعة، أهمها: المخطوطات والوثائق المحلية، وكتب الرحلات والتواريخ، و الكنانيش، وقد لجأنا في مرات عديدة إلى المتون الشفوية. فكان كل نوع من هذه الأنواع يكمل الآخر، وفي حالة وجود تضارب بينهما، اعتمدنا على مقابلة بعضها ببعض، وترجيح الأكثر ثقة، ويمكن تصنيف المصادر كالتالي:

* المخطوط
* العقود.
* كتب التواريخ.
* كتب الرحلات.
* الدراسات الأجنبية.

٤-التحري الميداني

يكتسي التحري الميداني في مجال الدراسات التاريخية أهمية كبيرة في معرفة المجال المدروس، ولا تقل الأهمية والمشقة عن عملية البحث عن المصادر أو جمع الروايات الشفوية، وهذا التحري الميداني غالبا ما يتم بشكل متوازي مع جمع الروايات من عين المكان، والهدف من هذا التحري هو اكتشاف واحات وادي نون ومعرفة تراثها المائي، كما أن من حسنات هذا التحري هو الوقوف عن كَتب على أهم المنشآت المائية بهذه الواحات، وينابيعها ومصادرها وطرق استغلالها عن طريق السواقي.

ويتطلب التحري الميداني مجهودا عضليا وفكريا، من أجل التأكد من مختلف المعلومات التي وردت في بعض الكتابات الأجنبية حول موضوع الماء في واحات

وادي نون، مع العلم أن هؤلاء الكتاب الأجانب اعتمدوا نفس الأسلوب في جمع المعلومات حول هذه الواحات، والمعتمد أساسا على التحري الميداني وجمع الروايات.

تعتبر الرواية الشفوية من أهم أدوات المؤرخ والباحث في الدراسات الميدانية، فهي تمكن من استجلاء بعض الغموض والعبارات الغامضة التي ترد في معظم الوثائق، ومرد ذلك لغة تلك الوثائق التي يكتبها عادة الفقهاء أو أرباب الزوايا، والتي هي خليط من اللغة العربية والعامية المحلية، والتي لا تعير أي اهتمام لجمالية الأسلوب وقواعد اللغة العربية، كما أنها تتضمن بعض الأعلام البشرية والجغرافية المحلية، والتي لا يمكن فك مضمونها إلا بالاستعانة بكثرة الرواة.

لكن الاستعانة بالرواية الشفوية يتطلب من الباحث الإلمام بلسان القوم ومعرفة البلاد وعاداتهم وتقاليدهم، وهذه الأمور تساعد الباحث على الاقتراب أكثر من المستجوبين وخلق علاقات حميمية معهم. ونظرا لخصوصية الخريطة القبلية لمجال وادي نون، والتي تتوزع بين قبائل تتكلم اللغة الحسانية، أي لغة بني معقل، وقبائل تتكلم اللغة الأمازيغية أو هما معا، فإن عدم الإلمام باللسانين معا قد لا يُمكن الباحث من التواصل ومن تم الحصول على معلومات هامة حول موضوعه، أو أنه قد لا يفهم كلام المستجوب على غير حقيقته، وبالتالي تحريف الحقائق عن غير قصد. أما عن منهجية تقصي الحقائق من أفواه الرواة، فاعتمدنا في هذا الجانب على الاتصال المباشر بالرواة الذين لهم دراية بموضوع التراث المائي، سواء كانوا ملاكا أو مستغلين أو متصرفين في أملاك الغير عن طريق الوصاية، ويعد كبار السن من أعيان القبيلة أو الخماسين، كفئة مستهدفة أثناء جمع الروايات.

٥-الخرائط والصور

تعد الخرائط والصور الدليل الذي يهتدي إليه القارئ قصد الوقوف عند جغرافية البحث، ومعرفة التراث المائي الذي تناولته الأطروحة المنجزة.

٦-حدود الدراسة

* **الضابط الزماني :** (١٨٢٣ إلى ١٩٥١م).

* **الضابط المكاني :** واحات وادي نون (تِغْمَرْتْ وأَسْرِيرْ وتَارْمِكِيسْتْ وفَاصْكْ وتَارْكَا وَسَايْ ولقْصَايبي وتِيسِكْنَانْ وتَكَانتْ وتِيمُولَايْ وإِفْرَانْ الأَطْلَسْ الصغير وأَدَايْ وأَمْتِضِي وتَغَجِيجْتْ وازْرِيولْ وازْرِيويلَة ووَاعْرُونْ وتَايْسَا وأَفَرْكطْ ولَبْيَارْ وأَبَايْنُو وتُوتْلِينْ وإِمِي نْفَاستْ وتَيْدلتْ وتِكْلِيتْ).

* **الضابط البشري :** أَزْوَافِيطْ وأَيتْ حْمَادْ واصْبُويَا وأَيتْ لحْسَنْ وإِدَا أُومَسْتَرْ وأَيتْ بْرَايمْ وأَيتْ بْرَاهِيمْ وأَيتْ يَاسِينْ وأَيتْ مُوسَى عْلِي وأَيتْ بُوهُو وأَيتْ بُوعْشْرَة وأَيتْ زَكْرِي.

٧-محتويات الأطروحة

قمنا بتقسيم بحث الأطروحة إلى مقدمة، وخمسة فصول، وخاتمة عامة وملاحق.

تَحدثُ في **الفصل الأول إلى دلالة التسمية وادي نون** والاختلاف الحاصل حوله، وإشكالية هذا المعنى كما تناولته العديد من المصادر والدراسات العلمية، نتيجة الغموض الذي اكتنف هذا المصطلح التاريخي الجغرافي. كما ناقشنا أيضا في الفصل بالتحليل والدراسة مجتمع الواحة من خلال المجموعات البشرية التي تتكون منها واحات وادي نون، من حيث مظاهر الحياة البدوية للمجتمع الوادنوني، بالإضافة إلى الوقوف عند نقطة أخرى بخصوص هذا المجال تتمحور حول المداشر والقصبات التاريخية الوادنونية.

أما الفصل الثاني فقد تحدثُ فيه عن خريطة الموارد المائية التي تتكون منها واحات وادي نون، كالأودية والعيون والآبار، وكيف ساهمت هذه الموارد في انتعاش المجال الواحي الوادنوني فلاحيا، وفي تعمير الواحات بشريًا.

أما الفصل الثالث الذي خصصناه للحديث عن التدبير الاجتماعي للموارد المائية داخل واحات وادي نون، وقد ميزنا مختلف الوسائل المستعملة من طرف المجتمع الواحي الوادنوني في قسمته وتوزيعه للماء بين ذوي الحقوق والمستفيدون من نوباته، وحاولنا تفسير هذه التقنيات التي يلجأ إليها الفلاح الوادنوني في استعمال واستغلال الماء.

وفي الفصل الرابع عملنا على الوقوف عند المقاربة الإثنوغرافية للطقوس المائية بواحات وادي نون، التي تعمل على رسم صورة ذهنية للثقافة الشعبية للمجتمع الواحة. كما كان هذا الفصل أيضا مناسبة للتطرق إلى العادات الاجتماعية التي تُقام داخل واحات وادي نون، كما قدمنا بعض المعلومات عن الأضرحة التي لعبت أدوارً رمزية في المجال الواحي الوادنوني.

ودرسنا في الفصل الخامس والأخير الأملاك المائية التي تحتوي عليها كنانيش واحات وادي نون. خاصة الصفحات العدلية التي تثبت استعمال واستغلال ملكية الماء والأرض داخل هذا المجال الواحي. كما ناقشنا

فيه الاعتبار التاريخي والاقتصادي للكنانيش وخصائصها، وعلى ضوء الإشكالية التي تمت مناقشتها، خرجت هذه الأطروحة بخاتمة عامة عبارة عن مجموعة من النتائج والاستنتاجات.

٨-خاتمة عامة

إن دراستنا للتراث المائي بواحات وادي نون، تبين لنا أن الماء لازال مصدر الحياة بالنسبة لسكان واحات وادي نون. لاسيما أن المنطقة شبه جافة وتعرف درجات حرارة مرتفعة في فصل الصيف، تجعل الحياة مستحيلة في ظل غياب الماء، فبالأحرى إقامة أنشطة زراعية. وتتوفر واحات وادي نون على مصادر متنوعة للماء كالأودية، خاصة واد واركنون وواد صياد، والعديد من الآبار، لكن أهم مصدر للماء هو العيون التي تعد الشريان الذي يضخ الحياة في الواحات، واعتمد مجتمع الواحة على تقنيات عتيقة لاستعمال الماء في ممارسة أنشطتهم الزراعية، كما يثير الماء مشكلات عديدة بين قبائل الواحة فيما بينها، وفيما بين الواحات المجاورة، مشكلات حول أحقية استغلال الماء والنسبة المستحقة لكل واحة.

وتُعَدّ الملكية الفردية للماء هي السائدة في واحات وادي نون، حيث تخضع هذه الملكيات لكل الإجراءات الشرعية والقانونية التي تخضع لها الممتلكات الأخرى، من حيث التوريث والبيع والكراء، والشراء، والرهن، فللمالك كامل الصلاحية في التصرف في الماء تصرفا مطلقًا. ويتضح من خلال مقاربة التراث المائي بواحات وادي نون، أن مجتمع الواحة كان نتاجا لمجموعة من العلاقات التي ساهمت في تشكل بنياته الثقافية والاقتصادية. فكانت العلاقة بين المجال والإنسان من هذه العلاقات، إذ تميز وادي نون بخصوصيات طبيعية هامة، كالموقع الاستراتيجي بين سوس والصحراء، والمناخ الملائم نسبيا، فاستقطب المجال منذ عصور طويلة مجموعات بشرية متلاحقة، كانت أولها المستقرون (أهل القصر) الذين استثمروا خصوصيات وادي نون للقيام بأنشطة زراعية كبرى وممارسة الطقوس المائية.

باستحضار التحولات التي شهدها القرن التاسع عشر الميلادي، تبين لنا أن مجتمع واحات وادي نون متنوع الأصول (أمازيغ، عرب). قد يظهر لأول وهلة أنه مجتمع غير منظم، إلا أنه بعد تعميق النظر والتحليل خلصنا إلى أنه مجتمع وحدوي، يعتمد على مجموعة من الاستراتيجيات والرموز المتميزة، كوحدة النسب والقوانين العرفية. كما تلعب الطقوس المائية دورا هاما في المجتمع الواد نوني خاصة الدور النفسي، إذ تشكل الطقوس المائية والدينية (عروسة المطر-تِسْلِيتْ أُونْزَارْ/ السنة الفلاحية-إِضْنْ أُوسْكَاسْ/ عاشوراء-تَاعَشُورتْ/ العرس-تمّغرًا)، حسب الاعتقاد الذهني للمجتمع طلبا للغيث، فهم من يسقطون المطر، ويخصبون الأرض. وتعد مناسبة للتصالح بين النساء. والطقوس المائية في مجملها ثقافة شعبية، يهدف من ورائها المجتمع الواد نوني تحقيق مصالح دينية واجتماعية.

٩-النتائج

لقد سمحت دراستنا هذه، حول التراث المائي بواحات وادي نون، إلى التوصل بنتائج عامة وأخرى فرعية، واعتبرت الأولى بمثابة العمود الفقري الذي أسست عليه رسالة أطروحتي، أما الثانية فتم استخراجها انطلاقا من جزئيات دقيقة للأطروحة. ويتبين لنا جليا في الفصل الأول أن التاريخ والمجال والإنسان في واحات وادي نون أهم العوامل الرئيسة في تحديد طبيعة الإثنيات البشرية التي استوطنت المجال الواحي الواد نوني، هذا يدل على قوة القبائل قيد الدراسة (أَزْوَافِيطْ وآيتْ لْحسنْ وآيتْ مَسْعُودْ وآيتْ بْرَاهِيمْ وآيتْ يَاسِينْ وآيتْ بُوهُو وآيتْ زَكْرِي وآيتْ بَاعَمْرَانْ وآيتْ مُوسىَ عْلِي وآيتْ حْمَادْ وإِدَا أُومْسْتَرْ)، التي امتدت جغرافيا في أماكن قرب الأنهار والعيون والآبار والنخيل، مما يبرز مكانة هذه القبائل فلاحيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.

لهذا، فإن الماء هو العنصر الأساسي الذي بنيت عليه حضارة واحات وادي نون عبر الزمن، حيث أقيمت على العديد من الموارد المائية التي تطرقنا إليها في الفصل الثاني، الذي شمل موارد متعددة منها: الأودية والعيون والآبار، مما يعطينا فرصة الاشتغال على التاريخ الاجتماعي للقبائل الواد نونية، التي حاولت أن تفرض نفسها في هذا المجال الواحي المرتبط بالماء والأرض، مع أن هناك قبيلة من القبائل السالفة الذكر (قبيلة آيتْ مَسْعُودْ) التي امتدت تاريخيا وجغرافيا، ووضعت آليات التفاعل والتماسك القبلي الذي أُسس لحضارتها عبر استيعاب القيم الإنسانية والثقافية ثم الرمزية، مما يدل على عمق دلالي يطبعه جو الاستقرار والترحال في عالم البداوة بين الواحة والبادية.

لذلك كان على سكان المجتمع الواحي الواد نوني، أن يدبر توزيع الماء ويقوم بوضع منشآت الري من أجل الحفاظ على الثروة المائية، وضمان أحسن لاستغلالها، فرغم قلة المصادر التي أشارت إلى هذه المنشآت (السواقي- المصارف- الساعة المائية- الصهاريج)، إلا

أن هناك رواية شفوية لشيوخ المنطقة، التي قدمت لنا معلومات مهمة حول هذه التقنيات العتيقة. وغير ذلك من المعلومات، كان لابد لنا في الفصل الثالث الوقوف عند طريقة توزيع وتخزين الماء في واحات وادي نون، ثم إلى التقنيات المستعملة آنذاك في الري التقليدي مثل (الطاسة- تَنَاسْتْ/ النوبة- تَوَالاَ/ العصا- أَسْقُولْ)، عوض الري العصري الذي يعتمد على الوسائل الحديثة (الساعة المائية- تِيرْمتْ/ محطة الضخ- الشَّاطُو/ الطاقة الشمسية).

إن ما قدمته الرواية الشفوية والوثائق التاريخية خاصة، من قوانين عرفية وأنظمة الري الماء في واحات وادي نون، يؤكد اهتمام المجتمعات الصحراوية بهذه المنشآت، بكونها الطريقة الناجعة في تقسيم الماء بين ذوي الحقوق. فقد عمد سكان واحات وادي نون الاعتماد على القوانين والأعراف المحلية المعمولة بها قديما، في استعمال واستغلال الماء داخل هذا المجال الواحي، ومن جانب آخر لعبت التقنيات العتيقة دورا مهما في توزيع الماء بين الفلاحين للحد من الصراع بينهم.

لذلك تضمنت الدراسات السابقة آليات ووحدات القياس المعتمدة في تقسيم الماء، نعني بالذكر دراسة أحمد إدا الفقيه في أطروحته (نظام المياه والحقوق المرتبطة بها في القانون المغربي شرعا وعرفا وتشريعا). بدورها شكلت منشآت تخزين المياه دورا بارزا في الري، بكونها تحافظ على الماء لاستغلاله في وقت الجفاف، وتدخل المصارف والسواقي ضمن خانة التوزيع، وإيصال الماء إلى الحقول الزراعية. كما يمكن رصد طريقة استغلال الماء في واحات وادي نون انطلاقا من ملكية الأرض والماء، ومن تقنية الخطارة والآبار.

أما فيما يخص النتائج الفرعية للأطروحة، فيمكن الإشارة إليها كما يلي:

هناك اختلاف لغوي في تسميات بعض منشآت الري في واحات وادي نون، على سبيل المثال نجد: (الطاسة) في واحة أسرير وتغمرت، أما في واحة تغجيجت فيطلق عليها باسم (تَنَاسْتْ-الطاسة)، بالمقابل لا توجد هذه الوحدة بواحة القصابي.

جل أسماء نوبات الماء تُنطق بالأمازيغية (تَاسْضَرتْ/ شجر-إدا ومستر/عرش-مِي رَمَانْ/ أم الجمال-تِيمزْكِدَا/ المسجد- وِيسْ كُوزْ- العدد الرابع).

الاعتماد على وحدة الساعة المائية عوض الطاسة أو تناست في جميع واحات وادي نون (منتصف الثاني من القرن العشرين).

إن حق الاستفادة من الماء في واحات وادي نون مرهون بانتماء الفرد إلى المجال، إلا إذا اشترى النوبة عند فرد من القبيلة.

يمكن القول إن نوبات الماء مرتبطة إلى حد ما بملكية الماء والأرض، من خلال شرائها ورهنها، كما شاهدنا ذلك في بعض واحات وادي نون (القصابي وأسرير).

هناك ملكية مشتركة في نوبات الماء، كما هو معمول به في كل من واحة تغجيجت وأسرير ثم تغمرت.

يسمى الشخص الذي يقوم بتوزيع الماء بين الفلاحين في واحات القصابي وتغمرت وأسرير ب (السرَّاطْ)، أما في واحة تغجيجت فيطلق عليه ب (بُوتَنَاستْ-صاحب الطاسة).

اختلاف في استغلال الماء في واحات وادي نون، هناك من يعتمد على الخطارات والآبار، أو بالأحرى على ملكية الماء أو الأرض.

يستفيد المجتمع الوادنوني من الموارد المائية (الأودية والعيون والآبار)، من أجل سقي الحقول والنخيل والأراضي البورية البعيدة عن المجال الواحي.

استغلال الماء من أجل تلبية حاجياتهم اليومية، كما رأينا ذلك من خلال المعاينة المباشرة في واحة تغجيجت، حيث قامت الفتاة بجلب الماء من الساقية من أجل غسل الملابس.

استنادًا إلى ما تم عرضه سابقًا، وإلى المقارنة التي قمنا بها حول التراث المائي في واحات وادي نون، تبين لنا هناك أوجه التشابه والاختلاف في طريقة استعمال واستغلال الماء داخل هذا المجال الواحي. ومن جهة أخرى يعتمد الفلاح الوادنوني في سقي الواحة، على الري المؤقت والموسمي، وذلك بتشييد سدود تحويلية عبارة عن حواجز، تحول جريان المياه نحو الحقول. ما يمكن قوله عن مصادر الماء في واحات وادي نون، أنها تمزج بين ثلاثة روافد أساسية منها (الأودية- العيون- الآبار). وبالتالي فإن خريطة الموارد المائية في المجال الواحي الوادنوني كثيرة ومنتشرة على نطاق واسع، وفي مختلف أرجاء واحات وادي نون، لكن رغماً من هذه الكثرة فإنها لا توفر كل المطلوب.

على سبيل المثال نجد: واحة القصابي حاليًا تعاني من ندرة الموارد المائية لسقي بعض الحقول الزراعية، والعكس صحيح بالنسبة للواحات الأخرى، ويرجع ذلك إلى ظاهرة موسم الجفاف الذي يُلحق هذه المجال،

وهو ما حذا بمجتمع الواحة إلى وضع مساطر صارمة حول طرق استعمال واستغلال هذه الثروة المائية. ولازالت واحات وادي نون تعمل بنفس الأعراف والقوانين المنظمة للسقي، بخلاف واحة القصابي التي تسقى واحتها بالوسائل العصرية (الطاقة الشمسية)، كما شاهدنا ذلك عند زيارتنا لدوار (مِي رَمَانْ وأم الجمال)، إلا أن السمة الموحدة في واحات وادي نون هي استعمالها لنفس التقنيات العتيقة، مع اختلاف في وحدة قياس الماء. تتشابه وتختلف واحات وادي فيما بينها في بعض منشآت الري، ونوردها على شكل الآتي:

الطاسة: موجودة في كل واحات وادي نون (أسرير وتغمرت وفاصك والقصابي وتكانت وإفران الأطلس الصغير وتِيمُولاَيْ وتَارْكَا وَسَايْ وازْرِيويلَة وأَفَرْكَطْ ولَبْيَارْ وتَيْدَالتْ).

تَنَاسْتْ: تُستعمل في واحة تغجيجت فقط.

النوبة: موجودة في جُل واحات وادي نون.

وحدة النوبة: تختلف من واحة إلى أخرى، نجدها في واحة تغجيجت تسمى (دَنقْ)، أما واحتي أسرير وتغمرت تسمى ب (أُوتَامَة)، في حين نجد واحة القصابي يطلق عليها ب (لِيلَة)، وتسمى في باقي الواحات ب (تِيرمتْ).

الصهريج: هذه التقنية موجودة فقط في واحتي تغجيجت والقصابي.

الساقية: لازالت إلى حد الآن في واحات وادي نون، بعضها قديمة وأخرى حديثة.

كان الهدف المنشود في مقارنتنا لهذه التقنيات (النوبة والساقية والصهريج ووحدة القياس)، هو الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف لعملية الري في واحات وادي نون. من جهة أخرى تختلف نسبيا طرق استغلال الماء في هذه المجال من واحة إلى أخرى. على سبيل المثال نجد: واحات تغمرت وأسرير وفاصك وازْرِيويلَة وتكانت وتَارْكَا وَسَايْ وإفران الأطلس الصغير اللواتي تعتمدان على ملكية الماء والأرض، والعكس صحيح لباقي واحتي وادي نون (تغجيجت والقصابي) اللتان تستعملان طريقتان هما (الخطارات والآبار).

بناءً على الوثائق المحلية التي بجعبتنا، والمرتبطة بموضوع التصرف واستغلال الماء في واحات وادي نون، **نستنتج أن هناك أوجه التشابه والاختلاف في التقنيات** التي يستعملها الفلاح الوادنوني داخل هذا المجال الواحي، نوردها كما يلي:

الخطارة: موجودة في جميع واحات وادي نون.

الآبار: موجودة أيضا في واحات وادي نون.

أَفْكرُوضْ: تكاد تكون منعدمة هذه التقنية في واحتي القصابي وتغمرت، والعكس صحيح في باقي واحات وادي نون.

هكذا يختلف استغلال الماء في واحات وادي نون نظرا لاختلاف الوسائل المستعملة في التدبير، ففي واحة تغجيجت يتم الاعتماد على تقنية الخطارة والسد التحويلي (أَكُوكْ)، عكس الواحات الأخرى التي تكتفي بتقنية الآبار وملكية الماء والأرض. وتنظر الساكنة إلى هذه التقنيات من جانب التقني الزراعي، التي تتخذها كمبدأ أساسي للعلاقات الاجتماعية بين ذوي الحقوق من الماء. من جهة أخرى تشكل إحدى الطرق الناجحة في استغلال وتدبير المياه داخل الحقول الزراعية، النابعة من التقاليد المحلية المعمولة بها داخل المجتمع الواحي الوادنوني. الذي يعبر على التضامن الاجتماعي بين كافة تشكيلات ساكنة واحات وادي نون.

إن الهدف الرئيس الذي رافقنا خلال مقاربة التراث المائي في الصحراء من منظور إثنوغرافي، هو محاولة الكشف عن الطقوس المائية التي كانت تمارس وسط مجتمع الواحة. وتقترن هذه الطقوس المائية والعادات الاجتماعية بطلب الغيث، عندما يصل الأمر بالفلاح الوادنوني في موسم الجفاف إلى حد اليأس. وبذلك يتهيأ مجتمع الواحة لإقامة هذا الطقس (عروسة المطر- تِسْلِيتْ أُونْزَارْ أوتَلْغَنْجَا) في موكب تشارك فيه النساء والأطفال، يرددون الأهازيج والأدعية، ويطوفون عبر الدواوير والقرى والأضرحة. وفي الطريق يتم رش الدمية (تَلْغَنْجَا) بالماء من أعالي البيوت، تدرعا من الله عزوجل أن يغثهم بالمطر، ومن جانب أخر يحتفل سكان واحات وادي نون في اليوم العاشر من شهر محرم بمناسبة تسمى (عيد عاشوراء وتَاعَشُورتْ)، الذي يتخلله صراع بالماء بين الشباب، حيث يقومون برش كل من يصادفونه، وهو مظهر ثقافي من مظاهر الموروث الشعبي الذي يقام في هذا المجال الواحي.

قد توصلت في هذه المقاربة الإثنوغرافية للتراث المائي في الصحراء، إلى العادات الاجتماعية التي تقام آنذاك في مكان جلب المياه وسط هذا المجال الواحي، ومن بينها نذكر: عادة الزواج- تمْغْرَا/ عادة الخطوبة-إِسِيكَالْ. وتتم هذه العادتان بعد اتفاق الابن مع البنت في ساحة الفرجة والرقص (أَحْوَاشْ)، وخلال مدة الخطوبة يُنفق الابن على أهل البنت لمدة سنة

كاملة، رغم ذلك فقد تم استبدال ظاهرة (عروسة المطر- تِسْلِيتْ أُونْزَارْ)، بطقس المَعْرُوفْ الذي يقام في وسط الضريح (معروف نْشِيخْ) أو ساحة المسجد (معروف نتمزكيدا)، حيث تقوم مجموعة من النساء بجمع الزيت والدقيق، من أجل تحضير هذا المعروف. وكل ذلك من أجل الفوز برضى وبركة هذا المكان المقدس، الذي يقام فيه هذا الطقس طلبا للغيث.

وقد سجلنا في هذا الصدد، أوجه التشابه والاختلاف للطقوس الدينية والمائية التي تمارس داخل مجتمع الواحة، نوردها كما يلي:

طقس عروسة المطر-تِسْلِيتْ أُونْزَارْ: تمارس في واحات (تغجيجت وفاصك وتيدالت وتكانت وتيمولاي وإفران الأطلس الصغير).

السنة الفلاحية-إِضِي أُوسْكَاسْ: يقام هذا الطقس في جميع واحات وادي نون.

عيد عاشوراء-تَاعَشُورتْ: تمارس في جل واحات وادي نون.

الزواج-تَمْغرَا: تقام هذه العادة في واحات (فاصك تكانت وإفران الأطلس الصغير وتغجيجت وتيمولاي).

المعروف-الوَلِيمَة: يقام في مختلف واحات وادي نون.

حامة أَبَايْنو: توجد هذه الحامة في واحة أباينو، التي تعرف بخصائصها الاستشفائية لمعالجة الأمراض الجلدية والروماتيزمية، حسب الاعتقاد الشعبي لساكنة هذه الواحة.

حامة خُفُو خمَادْ بواحة أسرير: تستعمل مياهها لعلاج بعض الأمراض الجلدية. وبجانبها ولي صالح، يسمى سيدي خفو حماد أو مُولْ سَبعْ عيُون، كما يتوفر على بيتان للمأوى، محاطان بالعديد من النخيل وأشجار الدفلة.

حامة لالة مْلُوكَة بواحة أَدَايْ: توجد حامة لالة ملوكة بواحة أداي، على بعد خمس عشرة كيلومترات من واحة إفران الأطلس الصغير، وهي من بين الحامات المعدنية التي تتوفر عليها واحة أداي، وتعد قبلة للعديد من السياح المحليين والأجانب. وتدخل ضمن الحامات العلاجية والاستشفائية من الأمراض الجلدية والنفسية.

عين أَبَرْبُوزْ (سْخُونَة) بواحة تغمرت: تقع على بعد عشر كيلومترات من دوار آيت بكو بواحة تغمرت، وهي من العيون المعدنية التي يقصدونها سكان واحتي تغمرت وفاصك من أجل الاستشفاء والعلاج، وتحتوي مياهها على الكبريت الذي يقضي على الأمراض الجلدية.

رغم أن الموضوع محدود المقاربات، إلا أن للبحث في التراث المائي في الصحراء وادي نون أنموذجا أهمية كبرى، إذ سيساهم في إضافة لبنة في مشروع كتابة تاريخ الفئة الاجتماعية لواحات وادي نون، إلا أن المشروع مازال في بدايته، فهناك مجموعة من القضايا التي تحتاج إلى مزيد من البحث العلمي، وتوسيع المقاربة المنهجية لتكون النتائج أدق، وبهذا نكون قد أنهينا هذا البحث المتواضع، على أن نكون قد وفقنا في تقديم عمل جدي ومفيد في حل بعض الإشكالات المطروحة في مجال التراث المائي بواحات وادي نون.